الفصل الثاني والعشرون

خطة ضياء

ظلت ملامح الضيق والضجر ملازمة لوجه عائشة حتى بعد مغادرتها منزل ضياء وركوبها السيارة مع ابنتها لتجلس بالمقعد الأمامي إلى جوار طارق، بينما جلست رُبا في المقعد الخلفي، ألقى نظرة على أمه ثم على أخته فرأها فرحة مرحة كعادتها جلست خلف كرسي عائشة وأخذت تتأمل المناظر من النافذة، ابتسم ثم قال وهو ينطلق بالسيارة نحو طريق العودة:

-رُبا، كيف كانت دراستك مع ضياء؟ أراكِ سعيدة رغم أنها ستدرسك.

التفتت له ووقفت لتتمسك بظهر الكرسي الذي أمامه وقالت له في سرور:

-لم ندرس؛ بل لعبنا ورسمنا.

بدت الدهشة على وجهه وهو يرفع حاجبيه، بينما قالت عائشة في غضب:

-أليس من الأولى أن تسألني أولاً بدل أن تسأل رُبا؟

حاول تهدئة غضبها قائلاً:

-لم أقصد شيئاً أمي، وإنما استغربت سرور رُبا فسألتها.

زفرت في ضيق وقالت:

-آخ منك، لم يكن المنزل وحده هو المقزز بل هي أيضاً، أما وجدت إلا تلك الفتاة ذات الوجه المخيف لتدرس أختك؟! لم أطق النظر في وجهها.

كاد طارق يرد عليها لولا أن تدخلت رُبا، قالت في ابتسامة مهولة موقف اللقاء وبنبرة بطيئة أرادت أن تكون مخيفة:

- نعم نعم، كانت أمي خائفة، عندما دلفنا إلى العمارة، شعرتُ بأني أدخل مغارة الأربعين لصاً في قصة (علي بابا)، كان الممر مظلماً ضيقاً وأمي تمشي خلف ضياء خائفة حذرة، ولما وصلنا الدور الثاني ارتعبت حين رأت وجهها، كأنها رأت زعيم اللصوص.

قهقه طارق ضاحكاً حتى دمعت عيناه وهو يقول محاولاً تمالك نفسه:

-ما هذا الخيال الخصب يا رُبا؟ لقد أذهلتني.

وضعت يدها تحت ذقنها وهي تفكر وتقول:

- لكنها تبدو لي زعيماً طيباً.

عاد لضحكه، وهو يقول :

-زعيم؟!

عقدت عائشة حاجبيها وقالت بغضب:

- زعيم ماذا يا مغفل؟ المنزل كله يثير اشمئزازي وكأنه من العصور السحيقة، عندما تزوجت والدك رفضت الإقامة فيه أو حتى زيارته، واشتراه والدك فقط ليبني عمارة جديدة، ليته أسرع في ذلك.

تمالك طارق نفسه وهو يمسح دموعه ثم سألها بجدية:

-على كل حال كيف وجدتِ ضياء؟ هل من الممكن أن تتعامل مع رُبا ؟

هزت رأسها وقال:

-نعم، أعتقد ذلك، تبدو لي صبورة على الرغم من أني لم أرتح لها كثيراً، استطاعت تحمل شغبها وفضولها وثرثرتها، إنها بداية مبشرة؛ لكن سنرى ما ستفعله معها لاحقاً، ويجب أن تعلم بأني لن أعود لهذا المكان ثانية ولن أصطحب أختك إلى منزلها قط.

تفاجأ من قولها فسأل مستفهماً:

-لماذا؟

- لأنك أنت من سيصحبها إلى هناك.

ارتبك في خلجات نفسه، هل سيظل كل يوم يتردد إلى منزل ضياء دون والدته؟

فقال محاولاً صرفها عن قرارها:

-لا يا أمي، هل نسيتِ ما فعله رجال حيها بي قبل أيام؟

-لم أنسَ، ولن يعتدي عليك أحد، ألم تذهب إلى هناك وتعود الآن؟

- مرة واحدة لن تضر، أما كل يوم وأنتِ لستِ معي؟ فإني أخشى...

قاطعته قائلة بحزم:

-لقد انتهى هذا الأمر باعتذارهم وباعتذار والدك لهم أيضاً، ثم أنك لن تمكث بالحي بل ستوصل أختك وترحل لتعود لاصطحابها بعد ساعتين.

زاد توتره وهو يقول:

-أمي هذا محرج جداً.

-وما المحرج في الأمر وأنت ستقف بسيارتك بعيداً عن منزلهم كما فعلت اليوم؟ هل طلب أحدٌ منك الدخول إليه؟! أنا لا أريد الدخول إليه أبداً.

ازداد ارتباكه وهو يفكر في طريقة ليصرفها عن قرارها، إلا أنها أسرعت تقول موقفة تفكيره:

-إياك أن تناقشني في هذا الأمر أمام والدك، لن أتراجع عن قراري أبداً.

تنهد بعمق وأطاعها ليكمل طريقه، كاد الضيق يستحوذ عليه وهو يلقي بصره في الطريق أمامه، لولا أن قالت رُبا له:

-هل هذا يعني بأني سأزور ضياء وألعب معها، مغامرة علي بابا والأربعون لصاً؟

أطلق العنان لضحكته مرة أخرى، بينما قالت عائشة:

-نعم سيوصلك طارق لا تقلقي.

ثم قال لها:

-لا حيلة لدي، ستفعلين ما تريدين يا صغيرتنا المدللة.

ابتسمت له وعادت تجلس بمقعدها وتتأمل المناظر من النافذة، بينما تمتم لنفسه:

-رائع جداً يا رُبا، وهذه بداية جميلة منك، والأمور تسير وفق ما أريد، سنرى، هل ستستطيع ضياء أن تحتملك أنت ولسانك وإزعاجك؟ متشوق لرؤية ملامح وجهها غداً، المزدوجة، زعيمة الأربعين لصا!

وعاد يضحك مرة أخرى.

لم يرق صباح اليوم التالي لطارق إلا بعد لقائه برفاقه الأربعة مع بداية الدوام، وإخبارهم بما كان من موقف رُبا وتصرفاتها مع ضياء ونعتها إياها بـ(الزعيم) راوياً لهم ما حكته بخيالها قبل ولوجهم للقاعة، ضحكوا كما ضحك هو أول مرة، فقال ناصر:

-يبدو أننا سنستمتع بمقالب رُبا مع ضياء.

رد باسماً:

-وأكثر من ذلك يا صديقي، لا أدري بما تتباهى تلك الفتاة لتتجاسر على تحديها لي.

قال محمود ضاحكاً:

-تتباهى ببشاعتها.

قهقهوا مجدداً وضرب طارق كفه وهو يقول محاولة تمالك نفسه:

-أوه، لم يخطر هذا الأمر ببالي، أنت شيطان يا محمود.

في تلك اللحظة دخلوا القاعة، فرآها تجلس بالمدرج الأول وعن يمينها سحر ورفيقاتها، تأمل ملامح وجهها ملياً مع كل خطوة يخطوها، فوجدها هادئة الملامح على عادتها تتحدث إلى رفيقاتها بابتسامة وعلى سجيتها، ابتسم ابتسامة مائلة، وقال في نفسه:

-هه، لن يطول الأمر حتى ينفذ صبرك، أو أن تستمري ويتدنى مستواك هنا، عندها وعندما أصل لغايتي تلك ستدركين هدفي من عرضي ذاك وستندمين أشد الندم على قبوله.

ومع اقتراب رحلة الشمس إلى النهاية في المساء، أوصل رُبا أخته إلى منزل ضياء، وحين وقف بالسيارة عند نهاية الزقاق، قال لها بحدة قبل أن تنزل وقد كانت تجلس إلى جواره:

-إذا سألتك عن سبب عدم قدوم أمك فأخبريها بأنها مشغولة، لقد أوصتك أمي أن تقولي هذا أيضاً، فهمتِ أم أعيد؟

هزت رأسها بقوة في صمت وانصياع لأمره، ثم فتحت الباب ونزلت من السيارة وهي تحمل حقيبة ظهر صغيرة بها بعض الكتب والوسائل التي طلبتها، ظل يراقبها من مكانه وهي تقطع الزقاق حتى وقفت عند باب العمارة وطرقت الباب، ثم رأى ضياء تطل برأسها من نافذة بالدور الثاني لترى من الطارق، فرأت رُبا ثم رأته، لحظتها غادر بسيارته مبتعداً، فنزلت لتفتح الباب لها ورحبت بها، ولما كانا في طريقهما نحو الأعلى سألتها قائلة:

-أين أمك يا رُبا؟ لِمَ لم تأتِ معك؟

ردت رُبا بسرعة:

-أمي لا تريد أن تأتي معي، فهي تكره القدوم إلى هنا، وخافت منك.

ابتسمت ضياء وقالت لها:

-هذا واضحٌ عليها؛ لكن لا بأس، هل أعطتكِ الأدوات التي طلبتها منها؟

أشارت لحقيبتها:

-نعم إنها معي.

-حسناً، هيا بنا إلى غرفتي.

حين أوشكت كل خيوط الشمس أن تختفي، عاد إلى الحي وأطلق بوق سيارته وانتظر قدومها، ثم رآها بعد لحظات تطل برأسها من النافذة فأشار لها بالنزول، فخرجت بعد دقائق بعد أن ودعت ضياء ومها، مثل أول يوم كانت رُبا مبتسمة مبتهجة وهي تتجه نحو السيارة، ولما ركبت انطلق بالسيارة وسألها في فضول مثل الأمس مبتسماً:

-أراك سعيدة اليوم أيضاً، ترُى ماذا حدث معك اليوم؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول في مكر:

-لن أخبرك.

دهش لردها، فقال لها في ابتسامة مماثلة:

-أوه حقاً؟! لن آخذك إلى أي مكان.

فردت بتحدٍ:

-سأطلب من أبي أن يأخذني إلى حيث أريد.

شعر بالذهول والحيرة لموقفها، لم يتمالك نفسه وأوقف السيارة قرب الشاطئ ليتأمل وجهها، ترى بماذا أقنعتها ضياء لتتحداه هكذا؟

قال لها وقد عقد حاجبيه في حدة:

-ما هذا الذي تقولينه يا رُبا؟ ليس من عادتك ألا تجيبني عندما أسألك.

اعتدلت وقالت وهي تغمض عينيها للحظات في زهو وتهز يدها:

-لأنه سر ولا أستطيع إخبارك به.

-أها، وماذا أعطتك ضياء لتحتفظي بهذا السر؟

ضحكت

-وهذا سرٌ أيضاً.

رد عليها في زهو:

-هل تظنين ضياء أفضل مني؟ سأمنحك أكثر مما أعطتك، أعدك بذلك، فقط أخبريني بما أنجزتِ اليوم.

قالت في إصرار:

-لن أحصل على (وسام الشجاعة) إن أخبرتك.

بدت السخرية على وجهه وهو يقول لها:

-وسام الشجاعة؟! ضياء تسخر منك يا رُبا، لا يوجد شيء اسمه وسام الشجاعة.

عقدت حاجبيها وقالت في ضيق:

-لقد أرتني إياه، كيف تقول بأنه ليس موجوداً؟

زفر طارق في ضيق وهو يقول:

-تباً.

ثم نظر إلى البحر، وقال في غضب وهو يشير إليه:

-إذن سأبقيك عند البحر حتى يأتي الظلام ويلتهمك أنت و سر ضياء إن لم تخبريني.

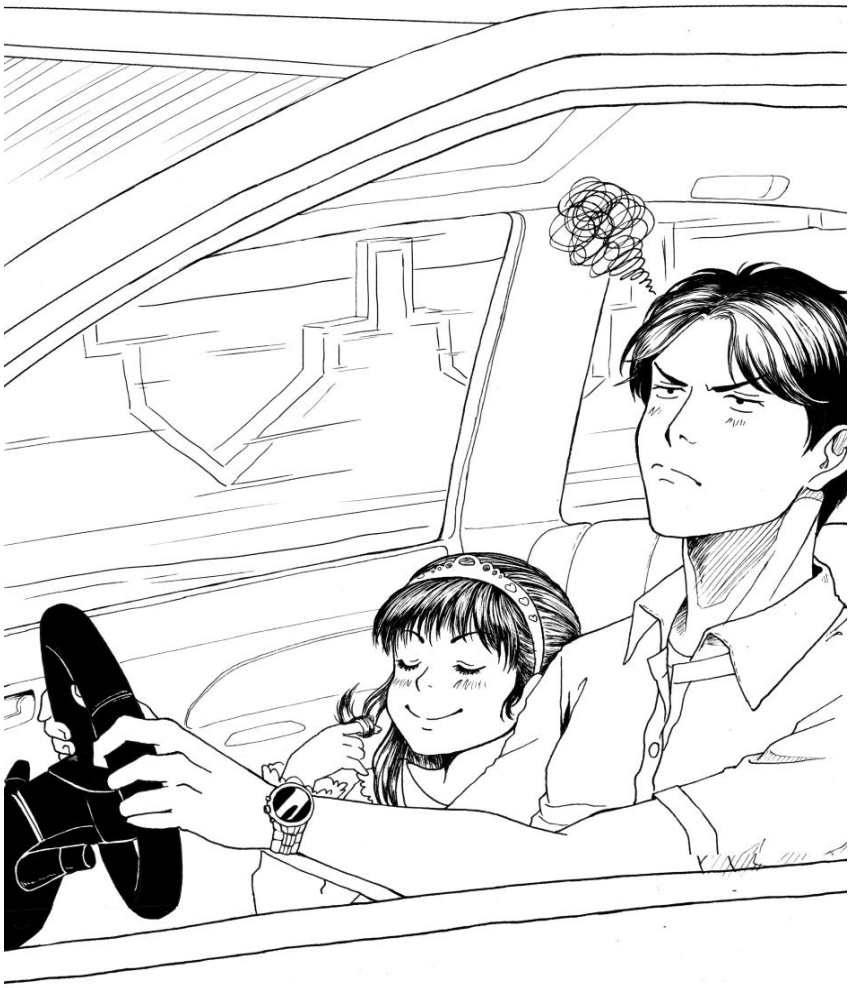

لم يبدُ الخوف على ملامحها؛ بل نظرت إلى البحر وقد بدأت أشعة الشمس تختفي خلف الأفق، ظل يتأملها، على الرغم من أنها صغيرة إلا أن لها شخصية فريدة قوية، وذكاء توقده متى ما أرادت، وتحكم على الأشخاص والمواقف وفق رؤيتها الخاصة رغم قصر تفكيرها وصغر سنها، انتبه وهي تقول في إعجاب للمنظر الماثل أمامها:

-ما أروعه من منظر، الشمس تغرق في البحر، دعنا ننزل إذن، لا مانع لدي في البقاء هنا لبعض الوقت واللعب.

و كادت أن تفتح الباب لولا أن أمسك بيدها ومنعها ،وهو يقول في غضب:

-هل جننتِ؟ ستغضب أمي إن تأخرتِ، هيا لنعد إلى البيت.

شعر باليأس منها وانطلق بالسيارة من جديد وهو يقول في نفسه غاضباً:

-كشفتِ خطتي يا ضياء هاا، طيب طيب، لن يطول الأمر حتى أفسد اتفاقك مع رُبا ويدرك الجميع بأنك لن تنجحي في عملك هذا أبداً.

لكن الأيام المتوالية كانت تقول لطارق كلاماً آخر، فخلال أسبوعين فقط من بدء ضياء لعملها الجديد يجد بأن الحاجز بينه وبين أخته يزداد ارتفاعاً وسماكة، حاول معرفة ما يدور بينهما خارج نطاق الدراسة، وبالدراسة أيضاً ولكن دون جدوى، لم يرد أن تتملكه خيبة الأمل، لم ييأس بل ظل يحاول معها ولم يستطع بعد ذلك اليوم أن يبهج رفاقه بالجديد، فكان يصرفهم عن الحديث عنها إلى حديث غيره حتى لا يبدو فاشلاً أمامهم.

وفي ذات مساء، حين كان يبحث عن أحد قمصانه ولم يجده في خزانته ،ذهب ليسأل والدته لربما رأته، فوجدها تدخل غرفة رُبا فدخل وراءها وهو يقول:

-أمي .. هل رأيتِ...

وقبل أن يكمل عبارته دفعته رُبا خارجاً وهي تقول:

-إذا سمحت، أمهلنا قليلاً.

دُهش

-ما الأمر؟

-لدي عمل مع أمي.

عقد حاجبيه وقال بضيق:

-وهل هذا سر أيضاً؟

هزت رأسها بحزم:

-نعم.

و حين خرج صفعت الباب، عائشة تضحك من تصرفها، بينما ابتعد من المكان غاضباً.

وفي مر ثانية حين اجتمعوا مرة حول سفرة الغداء، سألها عبد الكريم عن دراستها، فقالت:

-إنها على خير ما يرام.

-وماذا فعلتِ مع ضياء؟

هزت رأسها وهي تقول في مرح:

-هذا سر.

تفاجأ من قولها، بينما ابتسمت عائشة وقالت:

-رُبا، إنه والدك، لِم لا تخبريه؟

قالت في حزم:

-لن أحصل على الوسام إن أخبرته، ضياء أمرتني بأن أخبرك أنتِ فقط بكل شيء.

نظرت عائشة لزوجها وقالت موضحة:

-ضياء تحاول أن تعلم رُبا بأنه لا يجوز للإنسان البوح بشيء ائتمنه الأخرون عليه، هي ائتمنتها على بعض أسرار دراستها؛ لكنها تخبرني حتى أستطيع مساعدتها، أتمنى أن تتعلم حقاً بألا تبوح الأسرار لأحد.

قالت رُبا:

-وهذا ما أخبرتني به ضياء.

ابتسم عبد الكريم وقال وهو يمسح على رأسها:

-جميل يا رُبا، المهم أن تتعلمي يا ابنتي، سأكون فخوراً بك.

عقد طارق حاجبيه وقال في ضيق:

-علمتك أن تكتمي عن أخيك أمر دراستك مع أنه هو من جعلها معلمتك.

قالت عائشة:

-طارق لا داعي لهذا، ضياء بتصرفها هذا ستغرس شيئاً جميلا في رُبا، فلا تفسد عمل الفتاة..

لم يرق له ما قالته فصمت وهو يتناول طعامه سريعاً ثم انصرف وهو منزعج، لقد التمس تغيراً طفيفاً في شخصية أخته رغم أنها البداية فقط، ضياء استطاعت الصبر على تصرفات رُبا وستنجح في مهمتها بكل تأكيد، ويكون بهذا قد قدم لها عملاً على طبق من ذهب دون أن ينجح في مسعاه أبداً، كما أن أخته لم تعد تحادثه كما حدث في أول يوم لها مع ضياء، ازداد ضيقه واجتاحه الغضب، كيف سينجح في الوصول لهدفه وإرباك عمل ضياء وإيذائها وهو لا يعرف شيئاً عن تعاملها مع رُبا؟ ظل يفكر طويلاً كيف سيجعلها تفشل في ذلك ولم يصل لشيء حينها.

وفي مرة حين عاد للمنزل سمع رُبا وأمه تتحدثان بالمطبخ، اقترب منه خلسة ووقف عند بابه دون أن تلمحاه، فسمع رُبا وهي تقول مبتسمة:

-لقد قالت لي ضياء أن أخبرك بهذا يا أمي.

فقالت عائشة في ابتسامة:

-الحمد لله بأنك استطعتِ فهم شيء منها رغم أنك ما تزالين مشاكسة وتثرثرين، ولا تهدأين أثناء الدرس معها.

قال في نفسه آسفاً:

-للأسف، وصلت عند نهاية الحديث.

ثم انتبه لرُبا وهي تقول:

-لكنها لطيفة معي.

قال في نفسه ساخراً:

-طبيعي أن تكون لطيفة، وإلا ستخسر عملها.

ثم سمعها تقول:

-أمي، رغم أن وجه ضياء ليس جميلاً لكني أحبها كثيراً.

صُعق لما سمع، رُبا لم تحب معلمة واحدة ممن درسنها، فقال في نفسه ذاهلاً:

-تحبينها؟؟ إلى هذه الدرجة؟ ماذا فعلت ضياء بك حتى تغيرتِ هكذا؟!

ثم سمعها تقول متابعة:

-هل تسمحين لي بأن أبقى في منزلها ليوم واحد؟

كان يثق بأن أمه سترفض إلا أنه لمح رفقاً في عينيها وهي تمسح على رأسها وتقول بود:

-سأبحث هذا الأمر مع والدك.

ابتعد لحظتها عن المكان، وهو يكور قبضته ويعقد حاجبيه يقول في حدة:

-حسناً يا ضياء، سأعرف ما تفعلينه مع رُبا سأعرفه، وسترين، لن أسمح لك بأن تنتصري علي أبداً.

*****